نساء صوفيات

٣ – إمرأة رياح القيسى

للأستاذ فوزى عرفه

فى القرن الثانى من الهجرة تطورت الحركة الفكرية الإسلامية تطوراً سريعاً جعلها تمتلىء بالروافد القادمة من الخارج والمبادىء الأساسية الموجودة فى الداخل ، وحدث هذا التطور على وجه الإجمال فى ثلاثة مظاهر .

المظهر الأول : هو الحياة السياسية المضطربة ، إذا ظهرت أحزاب عديدة تخلط السياسية بالدين وتحاول أن تجد لها نصيراً من النصوص الدينية فى القرآن أو الأحاديث النبوية .

والمظهر الثانى : هو بداية الحركة الفلسفية التى اختلطت بصورة إسلامية غير متميزة أول أمرها ثم ظهرت كحركة نشيطة على أيدى أصحاب الكلام وأخيراً انفصلت عن الكلام فى نهاية القرن على أيدى النقلة والمترجمين .

المظهر الثالث : هو التصوف وظهور نظرياته المختلفة التى دعا إليها هذا أو ذاك من الصوفية مع محاولة اعتمادهم على النصوص الدينية فى القرآن وسلوك الرسول عليه الصلاة والسلام :

وكان من أكبر المراكز التى ظهرت فيها الحركة الصوفية فى ذلك الوقت مدينة البصرة ، وقد ألمعنا سابقا إلى أن هذه المدينة كانت تحوى النقيضين : من تقوى وفجور إلا أنها اشتهرت بتقوى رجالها وورعهم وكان قائد هذه الحركة الدينية الحسن البصرى صاحب الهلع والورع والخوف والبكاء والتقوى وقد أثرت شخصيته القوية فى كل من جاء بعده من الصوفية من أمثال رابعة العدوية ورياح القيس وزوجه التى اشتهرت باسمه وأغفلت الكتب التى تتحدث عنها ذكر اسمها .

وتواجه الباحث صعوبة كبيرة فى معرفة أصل امرأة رياح القيسى وهل كانت فى البصرة منذ مولدها أم نزحت إليها وهذه الصعوبة نفسها تقابلنا عندما ننظر فى حياة زوجها ولكن يغلب أن يكون هو من قبيلة قيس ومنها أخذ اسمه القيسى ثم نزح إلى البصرة ليعيش فيها ولانعرف شيئاً عن الظروف التى جمعت رياحا القيسى بزوجته ولا لماذا تزوجها إذ سنعلم بعد قليل أنه لم يعاشرها معاشرة الأزواج عندما انقطع إلى التصوف وامتنع عن مباشرتها .

كما أننا سنجد صعوبة أخرى تقف أمامنا وهذه الصعوبة تتمثل فى أن زوجة رياح القيسى كانت تستحث زوجها على قيام الليل كله فيقول صاحب الطبقات الكبرى « كانت رضى الله تعالى عنها تقوم الليل كله وكانت إذا مضى الربع الأول تقول له قم يا رياح للصلاة فلا يقوم فتقوم ثم تأتيه وتقول : قم يا رياح للصلاة قد مضى عسكر الليل وأنت نائم فليت شعرى من غرنى بك يا رياح ! ما أنت إلا جبار عنيد وهكذا نستطيع إذا تأملنا فى هذه الصورة أن نستنتج أن رياحا كان ينام الليل بينما زوجه كانت تقوم الليل مع أن صاحب طبقات الأولياء يعطينا عن رياح القيسى صورة مخالفة تتبين منها أنه كان كثير التقوى والخوف شديد الزهد فى الحياة الدنيا .

وهاتان الصورتان المختلفتان عن رياح القيسى جعلتا الباحثين يتحيرون فى تعليل سلوك رياح وقد رده البعض إلى إيمانه بنظرية الخلة — وقد فسر لنا صاحب « جامع الأصول » معنى الخلة فقال . « أما الخلة فهى مشتقة من تخلل الشىء فى الشىء وسمى الخليل خليلا لتخلل خليله فى قلبه » ويقال إن الصوفى إذا بلغ منزلة الخلة هذه بينه وبين الله سقطت عنه التكاليف واستباح لنفسه مالا يستبيحه الله لغيره من الناس لأن كل ما فى الدنيا ملك لله وبالنسبة إلى الله ينبغى معنى الحرام والحلال . فكل حل له ولهذا اعتبر أبو الحسين الملطى القائلين لهذا المذهب من أهل الأهواء والبدع فقال فى كتابه « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » «ومنهم صنف من الروحانية زعموا أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وارادتهم حتى يكون حبه أغلب الأشياء عليهم فإذا كان ذلك عندهم وكانوا عنده بهذه المنزلة وقعت عليهم الخلة التى بينهم دين الله لا على وجه الحلال ولكن على وجه الخلة كما يحل للخليل الأخذ من مال

خليله بغير إذنه وهؤلاء منهم رباح وكليب كانا يقولان بهذه المقالة ويدعوان إليها كذبوا أعداء الله » .

هذا الجانب يمثل لنا رباحا القيسى على أنه قد تحلل من بعض العبادات وربما بنى هذا الرأى على أساس الصورة التى تأثر بها صاحب الطبقات الكبرى عنه . فهل معنى ذلك أن هذا الجانب صحيح أم أن الصفة التى يلحقونها برباح عن قوله بمقام الخلة ليست مبنية على أساس معقول .

الواقع أننا أمام صورتين متعارضتين : صورة يقدمها لنا صاحب الطبقات الكبرى عنه والأخرى يعطيها لنا الشيخ عبد الرءوف المناوى فى طبقات الأولياء ، والصورة الثانية تظهر بمظهر المتهجد القانت فيقول رباح بن عمرو القيسى لا يعرف غير البكاء والتهجد والتضرع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله ، تراه دائماً هائماً بين المقابر وفى الليل يضع فى عنقه غلا من حديد ثم يضرع ويبكى حتى الصباح » ويصفه مرة أخرى فيقول « صاحب المجد والفخر القانت لله فى السر والجهر » ونحن هنا بين أمرين إما أن نقبل قول الشعرانى والملطى لننسب مذهب الخلة الى رباح القيسى وإما أن نقبل قول المناوى فلا نرى أن هذا المذهب — على الأقل — لم يمارسه رباح عملياً ، فلننظر فى أدله الفريقين لننتهى إلى رأى يرى من ينسبون إلى رباح القول بالخلة أنه كان صديقا لرابعة العدوية ، وقد كانت رابعة تنشد هذين البيتين :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحث تحت جسمى من أراد جلوس

فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

ويذكر صاحب قوت القلوب أبو طالب المكى هذين البيتين مسبوقين بقوله « ومن قولها النادر فى الخلة — « ثم يأت بالبيتين ، ولعلهم يعتمدون بعد ذلك على رواية الشعرانى والملطى وهاتان روايتان ضعيفتان لأن الشعرانى فيما يبدو يتجاهل رباحا القيسى ولا يعده من الصوفية فى كتابه ، وأما الملطى فيذكر صفات عند من يقول بالخلة مثل ارتكاب كبائر الزنا والسرقة وشرب الخمر والفواحش ولم يثبت شىء من هذا على رباح القسى مع المعلم بأن صاحب قوت القلوب جعل هذه الصفة الخلة

من صفات رابعة العدوية وهى كما بينا سابقا كانت كثيرة الصلات والتقوى حتى صارت كشن بال ، وإذا كان هناك شيء يؤخذ على رياح القيسى فهو ما ذكره الشعرانى من أنه كان ينام بينما تقوم زوجه الليل كله .

وخلاصة ما تقدم أننا لا نستطيع أن نقبل نسبة صفة الخلة على الوجه المتحلل الذى ذكره الملطى إلى رياح القيس وإنما نستطيع أن نفترض فرضاً آخر وهو إقباله على الملذات فى أول حياته مع اقترانه بزوجته التقية الورعة ولومها له على التفريط فى جنب الله ثم توبته الخالصة لوجه الله وسلوكه السبيل وإقبالة على الزهد والورع والتقوى حتى يخلص نفسه من أدران الفساد التى كانت قد علقت بها ، وهذا الفرض يفسر لنا جميع ما روى عنه ، فيفسر لنا لماذا كان يميل إلى صداقة رابعة العدوية حيث كانا متشابهين فى نوع حياتها الأولى ثم توبتهما كما يفسر لنا سر بكائه وغيبه كلما مر بمكان ما ويفسر لنا وصف المنادى له « كان للدنيا قاليا ومنها هارباً وفى الآخرة راغبا ولها خاطبا مطرحا للكلف راقياً بهمته إلى أعلى الغرف ، وكان إذا دخل المسجد بكى وإذا دخل بيته بكى فيقال له : أنت دهرك فى مأتم ؟ فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا .

فى هذا النص يتضح لنا أنه كان من أهل المصائب والذنوب ثم تاب وأناب فتحسر على ما فاته وتذكر لوم زوجته له ، ذلك اللوم الذى ظنه البعض نوعا من التحلل من العبادات فى جميع الحالات ومن ثمة ألحقوا به كثيراً من المسالب والصفات .

فإذا صح هذا الفرض وأضفنا إليه أن التصوف فى ذلك الوقت لم يكن قد شاع فيه ذكر الخلة كان تأثير امرأة رياح القيسى فى زوجها تأثيراً جميلا بحيث استطاعت أن تقرعه بهذا القول الشديد « ليت شعرى من غرنى يا رياح اما أنت إلا جبار عنيد » ففى هذا القول دلالة على شدة تقواها وعلى اهتمامها بسلوك زوجها وانصراف إرادتها نحو هدايته إلى نور الإيمان واليقين .

بهذا نستطيع أن نتجنب كثيراً من الآراء المتناقضة التى صورت لنا رياحا وجعلت طريقة حياته مع زوجه التقية شيئاً غير معقول ولا مقبول ونستطيع أيضاً بعد

ذلك أن نرسم صورة صحيحة للصلة التى قامت بينها وبين زوجها بعد سلوكه فى طريق التصوف وتتميز هذه الصورة بما يلى :

أولا : الزهد فى الدنيا : قال صاحب الطبقات الكبرى « وكانت رضى الله تعالى عنها تأخذ تبنة من الأرض وتقول والله للدنيا أهون على من هذه » وقال صاحب طبقات الأولياء واصفا إدام رياح القيسى « وكان أدمه الملح والخبز ويقول لنفسه أمامك طعام العز والجاه والعرس فى الآخرة ، وكان هذا الزهد فى الدنيا طريقة متبعة فى بيت رياح القيسى لأنه أراد أن لا يعلى من شأن بطنه على عقله فكان يقول « شأن العاقل أن لا يجعل لبطنه على عقله سبيلا فإن الدنيا أيام قلائل » كما أنه يستدل من أقوال رياح أن بيته لم يكن يذوق اللحم إلا لماما فكان يقول « إياكم والإكثار من اللحم فإنه يقسى القلب » وكان مراده من وراء هذا أن يملك نفسه ويتحكم فيها وفى هذا يقول : « تحويل جبل من مكانه أسهل من إزالة حب الرئاسة إذا استحكم » ويقول « نحت الجبال بالأظفار أسهل من مخالفة الهوى إذا تمكن » كما أراد به أن يكون وسيلة لنور الحكمة فقال « كما لا ينظر بصر الخفاش نور الشمس لا ينظر قلب محب الدنيا نور الحكمة » .

وهكذا يمكن لنا أن نعرف حالة هذا البيت الكريم الذى كانت تعيش فيه امرأة رياح والجو الفكرى الذى كان يسوده إذا كان مدققاً خاليا ليس فيه من العمران إلا امتلاء القلوب بفيض الرحمن كما كان حلقة للتزاور بين الصوفية بعضهم وبعض حيث يقسمون بينهم أنصبائهم من غير أثرة أو تنافس وفى ذلك يقول « إذا قال رفيقك قصعتى فليس برفيق حتى يقول قصعتنا » .

كما كان هذا البيت معقد مجالس الذكر وحلقات العلم والدليل على ذلك قول رياح « عليك بمجالس الذكر وحسن الظن بمولاك وكفى بهما وقال « مما أوصى به الخضر عليه السلام موسى « إياك أن تتعلم العلم لغيرك فلا تعمل به فيكون لغيرك نوره وعليك وزره .

وبهذا نستطيع أن ناخذ صورة واقعية لحالة الفقر والزهد فى الدنيا والتوكل على الله والإنقطاع للعلم والعبادة مما كان شائعاً فى البصرة وتمثل فى هذا البيت الكريم

وبرعاية هذه السيدة المباركة وقد رضوا بهذه الحالة لا رغما وقسراً فلو شاءوا لفرقوا في النعيم إلى أذقانهم وإعاطلبوها للآخرة التي هي خير وأبقى .

ثانياً : المعاشرة الزوجية : كانت امرأة رياح تحسن المعاشرة لزوجها وتؤدي له حقوق الزوجية الكاملة غير منقوصة وفي ذلك يقول صاحب الطبقات الكبرى « كانت إذا صلت العشاء تطيبت ولبست ثيابها ثم تقول لزوجها : ألك حاجة ؟ فإن قال : لا ، نزعة ثياب زينتها وصلت إلى الفجر رضي الله عنها » .

أما زوجها فقد أمات الشهوات في نفسه. وخضع للميل العام عند الصوفية في عصره من العزوف عن ممارسة حقوق الزوجية المحللة حتى يصل إلى مرحلة الصديقين الذين لا يشغلهم مال ولا بنون وفي ذلك يقول « سمعت مالك بن دينار يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة وأولاده كأنهم أيتام ويأوي إلى مزابل الكلابان .

وقد فعل ذلك كما قامت هي بواجبها الكامل نحوه فقصد الغاية سامية وهدف مأمول تهون من دونه اللذات وتصغر الى جانبه فنون الحياة وشئونها ، أنزلنا الله وإياهم منازل الصديقين والشهداء والأبرار . آمين .